

جمالية الأمثال الشعبية الجزائرية-دراسة فنية The aesthetic of Algerian popular proverb - an artistic study-

وداد صيد^{1*} ، مخبر الشعرية الجزائرية-جامعة المسيلة، المركز الجامعي بركة، الجزائر،

widad.sid@cu-barika.dz

علي بولنوار²، المدرسة العليا للأساتذة بوسعادة، الجزائر، Boulanouarali15@yahoo.fr

تاريخ قبول المقال: 2024-11-22

تاريخ إرسال المقال: 2024-08-10

الملخص: تعد الأمثال الشعبية أكثر أشكال التعبير الشعبي تداولاً وانتشاراً في المجتمع الجزائري؛ ذلك لأنها تشكل جزءاً كبيراً من الثقافة الشعبية التي لا يمكن التخلي عنها مهما طال الزمن وتغيرت الأحداث والأشخاص، فالفائدة والعبرة لا يمكن أن تتغير، كما أن الأمثال الشعبية مجال خصب للدراسة والبحث وكلما زاد التعمق في دراسته كلما اتضحت سمات الشعوب الثقافية، إذ يتسم بالمرونة انطلاقاً من بنيته القصيرة والزخرفة بالألفاظ المتنوعة ذات البعد الجمالي المتميز في أسلوبه وتراكيبه الفنية، وانطلاقاً من هذا سنحاول في دراستنا الحالية الكشف عن الآليات والأبعاد الجمالية الموجودة في بنية المثل الشعبي الجزائري؛ حيث أخذنا جملة من الأمثال الشعبية ووضعناها تحت الدراسة والتحليل، متبعين في ذلك المنهج الوصفي وآليات التحليل، منطلقين من طرح الإشكالية التالية: أين تتجسد الأبعاد الجمالية والفنية في المثل الشعبي الجزائري؟ وماهي الطرق والأساليب التي جعلت منه حاضراً بين أفراد المجتمع؟ وكيف حافظ على تراكيبه مع مرور الزمن؟

الكلمات المفتاحية: الأمثال الشعبية الجزائرية؛ البنية الجمالية؛ دراسة فنية.

Abstract: Popular proverbs are among the most important and widespread forms of popular expression in Algerian society, it constitutes a large part of popular culture that cannot be abandoned no matter how long it takes. Events and people have changed, but interest and lessons cannot change, popular proverbs are a fertile field for study and research, the deeper one studies it, the clearer the cultural characteristics of peoples become. It is characterized by flexibility, based on its short and rich sentences with various expressions with a distinct aesthetic dimension in its style and artistic compositions.

As of this point, we will try, in our study, to reveal the mechanisms and aesthetic dimensions of the structure of the Algerian popular proverb. Where we included a set of proverbs under study and analysis, and followed the way they were mentioned, following the descriptive approach and analysis mechanisms, starting from the following problem: Where are the aesthetic dimensions

*وداد صيد:

جمالية الأمثال الشعبية الجزائرية-دراسة فنية

embodied in the Algerian popular proverb? What are the ways and methods that made it present among the members of society? And how did he keep his tracks over time?.

Key words : Algerian popular proverb ; aesthetic the structure; an artistic study.

مقدمة:

حظي الأدب الشعبي الجزائري في الآونة الأخيرة باهتمام كبير من قبل الباحثين والدارسين المختصين في هذا المجال، باعتباره موروثا ثقافيا لا يمكن الاستغناء عنه وعن كل مظاهره التعبيرية، يمتاز بالتعددية والتنوع من حيث أشكاله الأدبية التعبيرية الشعبية كالقصة والحكاية والألغاز والأمثال الشعبية وما إلى ذلك، وكل نوع يعتبر مجالا خصبا للدراسة والبحث. وفي الوقت نفسه تعد دراسة الأدب الشعبي بحثا في ثقافة شعب ما واستكشاف كل مظاهره والدلالات المتعلقة به، فهو الذاكرة الحية للشعوب ينتقل من جيل إلى جيل.

يغلب على النص الشعبي طابع اللين والمرونة كونه ينتقل عن طريق المشافهة سواء كان شعرا أم نثرا، حيث يقوم على مستويات جمالية بليغة، بداية من طبيعة الألفاظ والجمل والأحرف والأدوات، هذا ما جعله سهلا للحفظ والتداول بين الناس. والذي يدرس التراث الشعبي يلاحظ أنه يتسم بالجمال الأصيل الذي يحافظ على الهوية والأصول لأن التراث والعادات والتقاليد سمة جذرية وثابتة.

ومن حيث اللغة، نجد الأدب الشعبي ينفرد بلغته البسيطة ذات التراكيب الفنية المتميزة بالجمالية إذ أنه ليس كلاما عاديا، وفي دراستي هذه حاولت تسليط الضوء على الجانب الجمالي للمثل الشعبي الجزائري، على غرار ما حمله من معان ودلالات تثير قضايا عديدة من خلال سلوكيات بشرية عبروا بها عن واقعهم الاجتماعي وبنية قيمنا الأخلاقية، وهذا الجزء من الأدب الشعبي يحتاج إلى عناية كبيرة وذلك بجمعه وتدوينه ودراسته، إحياء لذاكرته وتثمينها لما يمثله من رموز ثقافية وقيم إنسانية.

المبحث الأول: المثل الشعبي الجزائري:

يشغل المثل الشعبي حيزا كبيرا وهاما من الأدب الشعبي لكونه عبارة عن لوحات فنية وصلت إلينا مطبوع عليها تاريخ وآمال الشعوب الماضية، كما تجمع التحف الفنية النادرة بعناية تامة، لذلك وجب أن تجمع الأمثال الشعبية لتبقى نقطة وصل تربط الحاضر بالماضي إضافة لاستشرافها على المستقبل.

المطلب الأول: التعريف بالمثل الشعبي:

عرف العديد من الباحثين في الأدب الشعبي المثل الشعبي على غرار نبيلة إبراهيم التي ترى بأن "المثل قول قصير مشبع بالذكاء والحكمة، ولسنا نبالغ إذا قلنا إن كل مثل يصلح أن يكون موضوعا لعمل أدبي كبير، إذا استطاع الكاتب أن يتخذ من المثل بداية لعمله فيعيش تجربة المثل ويعبر عنها تعبيراً تحليلياً

جمالية الأمثال الشعبية الجزائرية-دراسة فنية

دقيقاً¹. وإذا أردنا فهم المثل في اللغة العربية نجده بمعنى التشبيه، ويطلق على الكلام الشائع الحسن أو الذي يشتمل على الحكمة، يكون محملاً بالتشبيهات والاستعارات والمحسنات البديعية.

تختلف البنية اللغوية في المثل عن اللغة العادية وأهم صفة له قصر جملة مما أدى إلى انتباه الدارسين له، إذ أولوه عناية من حيث البحث عن سر جماليته شكلاً ومضموناً، إضافة لتلك التحولات الملحوظة على مستوى تراكيبه وألفاظه؛ كأن يحدث تقديم أو تأخير في عناصر الجملة التي يتكون منها المثل الشعبي، حتى قد يحدث تغير على مستوى الحروف داخل الكلمة الواحدة انطلاقاً من تأثيره بلهجات المناطق التي يقال فيها.

تنتقل الأمثال الشعبية عبر العصور بلغة شعبية شعرية متعددة اللهجات يتخللها حس جمالي وفني، محملة بتجارب وخبرات السابقين في مختلف المواضيع ذات المعاني المتعددة والمتنوعة، وكان نمطها الموسيقي الذي تسير به العامل الأساسي الذي جعلها تنتشر في المجتمعات، لما للموسيقى والإيقاع من وقع على الإنسان، إذ يتدخل كل من الطباق والجناس والتكرار وما إلى ذلك من مميزات في تميز بنية وكيان المثل الشعبي، حتى أنه لكل لهجة من اللهجات العالمية عامة والجزائرية خاصة خصائص في اللغة إما على مستوى الأصوات أو التراكيب، أو المفردات. كل هذه العوامل تجعل المثل الشعبي يفيض بمعانٍ ودلالات بلاغية.

هو الأمر نفسه الذي يراه أحمد أمين عندما عدّ الأمثال الشعبية "نوعاً من أنواع الأدب يمتاز بإيجاز اللفظ وحسن المعنى، ولطف التشبيه وجودة الكناية، ولا تكاد تخلو منه أمة من الأمم، وميزة الأمثال أنها تتبع من كل طبقات الشعب"². يقودنا هذا المفهوم إلى استنتاج أن المثل الشعبي يمتلك خصائص بلاغية متعددة رغم أنه بسيط، يشترك في إنتاجه وتداوله كل طبقات المجتمع، فلا يشترط في تأليفه فئة مثقفة أو متعلمة لأنه حصيلة لتجارب إنسانية مشتركة.

كما نجد تعريفاً آخر مفاده أن الأمثال العامية تمثل حكماً وضعت في تعابير ميزتها الإيجاز والبلاغة تتعلق بحياة الإنسان³، تمس الأمثال الشعبية حياة الإنسان من ناحية أنها نتاج لحقائق ووقائع بشرية، كما أنها تجسد لهجة ولغة أفراد المجتمع، حين تصور لنا لغته ووقائعه في قوالب وعبارات مختلفة تخدم بذلك الفرد والمجتمع.

¹ نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار النهضة مصر، المطبع والنشر، القاهرة، ص144.

² أحمد أمين، قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012، ص69.

³ محمد المرزوقي، الأدب الشعبي في تونس، الدار التونسية للنشر، تونس، 1967، ص33.

جمالية الأمثال الشعبية الجزائرية-دراسة فنية

يتفق كل من بحث في المثل الشعبي على أنه ذلك التعبير الوجيز المحمل بالدلالات والمعاني، تختلف فيه اللغة عن غيرها من الكلام العادي إذ تكون أكثر شعرية، يُصاغ في قالب بلاغي فني، أما عن جمالية المثل فتكمن في كونه دائم الانزياح، فلا يكتفي بالوظيفة التواصلية والتعبيرية بين الناس إنما له توجه نحو لغة أكثر رونقا تعلوها القيمة الفنية.

هكذا هي اللغة تحمل المتلقي إلى مواطن الجمال في الأعمال الأدبية، فالكاتب أو المبدع ذلك الذي يرسم باللغة صورة معبرة محاولا استفزاز المتلقي وخلق جو من التوتر والقلق، حتى ترسخ معانيه التي سعى إلى توضيحها ف: "إن التشكيل الجمالي غائي، وغايته تأسيس المعنى والحقيقة التي تكشف عن وجود الإنسان وفاعلية وعيه، وهكذا يتحول الوجود الإنساني إلى وجود من أجل المعنى، والجمال هو الذي يحدث هذا التحول، فيتحول العالم إلى نظام للمعنى وإلى سلسلة من الظواهر الجمالية"¹.

يحقق المثل الشعبي الغاية الفنية من خلال تراكيبه فيتلذذ المتلقي بالنص لينطلق في عملية الهدم قصد إعادة البناء لاستتطاق الجوانب الخفية لنص المثل الشعبي، و"لأن المثل في طبيعته كان وليد حادثة معنية وقعت في مجتمع ما في زمن ما، وسياق لغته لا يُغير أبداً ولو كان ملحونا"²، ويُعد استحضار المثل الشعبي خلال المحادثات العادية بين أفراد المجتمع نوعاً من ممارسة للثقافة الشعبية، ورغم بساطة تفكير الحكماء القدامى إلا أنهم استعملوا الصور البلاغية في التعبير عن أفكارهم وطباعهم، فاخترتوا عند ضرب المثل اللجوء إلى التشبيه والكناية والاستعارة حتى أنهم فضلوا أن يضعوها في قوالب فنية تطرب من يسمعها؛ إذ يحتوي على جرس موسيقي متنوع بين سجع وجناس وطباق وغيره من المحسنات، يعمل المثل الشعبي على تقريب المعاني للجمهور من خلال صوره الفنية البسيطة وتكون جملة عبارة عن كلمات متناسقة تعبر عن موقف من مواقف الحياة.

المطلب الثاني: بنية نص المثل الشعبي الجزائري:

وفي المثل الشعبي الجزائري برع الحكيم في تصوير خبراته وتجاريه فأخرجها لنا في حلة فنية دلالية، نُحيل إلى عالم مليء بالحكم عبر عنها بجمال قصيرة تثير مشاعر وأحاسيس المستمع، والأمثال حياة كاملة تحمل بين طياتها كل ما هو سياسي، اقتصادي، اجتماعي، وحماسي وما إلى ذلك من المظاهر الاجتماعية.

¹- هلال الجهاد، جماليات الشعر العربي، دراسة في فلسفة الجمال في وعي الشعر الجاهلي (المجلد 1)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2007، ص 13.

²- عبد الملك مرتاض، الأمثال الشعبية الجزائرية "دراسة في الأمثال الزراعية والاقتصادية"، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص 92.

وكغيره من الأمثال الشعبية العالمية عبارة عن مزيج من الحروف والأفعال والأسماء والأدوات، وإن كان نصاً بحجم صغير مختلف التراكيب ومتنوع الإيقاع.

وفيما يخص تكوين نص المثل الشعبي قد يتألف من جملة واحدة كأن نقول: **المسلفة مردودة، القلب لحمه، الزواج ستره، الموت رحمة...**، ينتشر في المجتمع الجزائري هذا النوع من الأمثلة القصيرة جداً، وفيه نوع ما من محاكاة طبيعة الفرد فيه، الذي يحب الاختصار في المحادثات دون المساس بمعنى كلامه لا في المعنى ولا في البنية. وبالرغم من أن جملة المثل الشعبي تتكون من كلمتين فقط، إلا أنه يستوفي معناه ولا يحتاج لتكملة حتى تتضح معالمه للمتلقى، ولا يهم ترتيبها نحويًا أو صرفيًا لأنه عبارة عن حديث عامي لا يتقيد بقواعد اللغة.

وقد يأتي المثل في جملتين مثلاً: **زواج ليلة تدبيرو عام، طاح الكاف وردم الظل، لما حذانا والقب قضانا، الدب دابي وأنا راكب اللور، العبد ذارح والدجاج سارح...**، بعد التمعن في بنية بعض الأمثال الشعبية الجزائرية تم ملاحظة أن هناك من الأمثال ما تحتاج لتكملة بجملة مرادفة للجملة الأولى بُغية تكملة معناها، ألا ترى أنه عند قول الجملة الأولى من مثل "لما حذانا" والتي يقصد بها بالعربية قرب الماء أو منبعه من مكان الإنسان، لا نفهم شيئاً من المثل لكن عند إكماله بالجملة الثانية: "القب قضانا" التي تحمل معنى العطش الشديد، فإننا نطلع على المعنى الذي جاء به المثل؛ الذي له معنى حسي يفيد أن هناك من الأمور القريبة التي فيها الفرج لكن الإنسان لا يصل لها ويبقى متعطشاً لها، ربما كان السبب في ذلك عدم الإرادة أو العجز النفسي وعدم السعي لنيل المطالب.

وقد يأتي المثل الشعبي في أكثر من جملتين إذا دعت الحاجة لذلك أو كان الغرض منها التمتع بالوصف عند معالجة أمر ما، ومن أمثلته ما يلي:

- **خيار المأكلة ما حضر، وخيار اللبسة ماستر، وخير الأسماء محمد - صلى الله عليه وسلم - خير البشر.**

- **إذا دخلت للبير طول حبالك، وإذا دخلت للتجارة طول بالك، وإذا دخلت سوق النساء رد بالك.**

- **واحد جوابو في فمو، وواحد جوابو في كمو، وواحد جوابو عند أمو.**

وفي بعض الأحيان يأتي المثل الشعبي على شكل بيت شعري أو أكثر فيتداوله الناس بصياغة شعرية مثلاً عندما يتكلم عن المرأة من ناحية الجمال أو العقل يقال فيها:

لا يعجبك نوار دفلى * في الواد عامل ظلايل**

ولا يعجبك زين طفلة * حتى تعرف الخصال**

ونجد مثلا آخر يصف كيد النساء والذي يقول:

بهت النسا بهتين * من بهتهم جيت هارب**

يتحزموا باللفاع * ويتخللوا بالعقارب**

وهناك من الأمثلة التي تأتي بحكمة معينة إذ يحاول الحكيم الشعبي أن ينصح الإنسان، فيتخذ المثل وسيلة له حتى يبلغ رسالته وهو ما قد نلتمسه في المثل الشعبي الجزائري التالي:

سور الرمل لا تعليه * ولا تعمق في ساسو**

ولد الناس لا تربييه * يكبر ويعرف ناسو**

إن وجود الأمثال ذات الطابع الشعري دليل على أن الإنسان بطبعه يميل إلى استعمال لغة شعرية لنقل خبراته وتجاربته إلى غيره، وأنها شيء محبوب وسط المجتمع الجزائري الذي يشتهر بطقوس شعبية؛ مثل وجود القوال أو الحكواتي في الأسواق الشعبية، الذي تتشكل من حوله حلقة من الناس قد جذبهم بحسن كلامه، طارحاً العديد من القضايا الاجتماعية وأمور الدنيا والدين، حيث يستعين بالأمثال الشعبية والحكم وحتى الألغاز، ولا يكاد سوق جزائري قديم يخلو من هذا النوع من الممارسات الشعبية التي تُحافظ على التراث المادي والمعنوي بشكل فني إمتاع.

إنها ظاهرة لها كيانها وسط المجتمع الجزائري، والدارس للمثل الشعبي يشده انزياحه عن اللغة العادية أو اللغة الدارجة إلى لغة أكثر فنية مهمتها تأدية وظائف جمالية، تجعل من النص الشعبي أو نص المثل الشعبي أكثر مرونة من غيره تُطرب سامعها؛ ذلك أن لغة المثل لا تشبه اللغة العادية المسترسلة، فتكتمل الصورة الفنية الجمالية الموجزة فيه، فهو ليس عبارات في مقال أو تقرير صحفي إنما حياة كاملة في قوالب فنية واضحة، هذا ما يبدو جليا في الأمثال الشعبية الجزائرية من خلال البحث العلمي.

المبحث الثاني: جمالية التصوير الفني في الأمثال الشعبية:

لا يخلو الأدب الشعبي من وجود الصور الفنية في بنيته مثله مثل الأدب الرسمي، وإن كانت مختلفة قليلا عنه، بالرغم من سذاجة وبساطة الأدب الشعبي فقد جاءت كل أنواعه وأشكاله زاخرة بكل أنواع الصور معبرة عن ثقافة المجتمع وتعلقه بالأدب بصفة عامة. ولو عدنا للأمثال الشعبية لوجدنا كما هائلا من العبارات التي تحملنا لعالم مليء بالتصوير الفني البلاغي. تسير الأمثال الشعبية الجزائرية في نفس الطريق الذي تسير فيه الأمثال العربية وإن اختلفت في الأدوات المساعدة في عملية التصوير، وفي هذا الموضوع

كان لنا دراسة وجيزة في بعض الأمثال الشعبية الجزائرية تم البحث فيها عن مواطن الاستعارة والتشبيه المتمثلة فيما يلي:

المطلب الأول: الاستعارة:

لا يمكننا الاستغناء عن الاستعارة في الأدب الشعبي بصفة عامة، وفي الأمثال الشعبية على وجه الخصوص، بواسطتها يتم إخراج اللغة من بساطتها إلى عمقها، فتؤثر في المستمع أو القارئ مثيرة وجدانه فهي أفضل المجاز وأطفه؛ حيث يُحذف أحد طرفي التشبيه فيها، ولنا في الأمثال الشعبية الجزائرية نماذج سنوضحها فيما يلي:

- "إذا حبك القمر بكمالو وش عندك في النجوم إذا مالوا": نجد هنا استعارة تصريحية حيث ذكر المشبه به (القمر) وحذف المشبه وهو (الإنسان)، أيضاً في الجملة الثانية هناك استعارة تصريحية أخرى ذكر المشبه به (النجوم)، وحذف المشبه المتمثل في مجموعة الأشخاص الذين لا يحبونه؛ إذ ترك قرينة دالة وهي صفة الحب التي لا توجد إلا لدى الإنسان، والملاحظ أنّ مثلاً واحداً حُمِلَ باستعارتين لبيان المعنى وثقل وزنه.

- وعندما يُقال أيضاً: "إيلا عكست الأيام ساميها وأرقد": يحمل استعارة مكنية شبه الأيام بالإنسان وترك ما يدل عليه وهي (رقدت) بمعنى (نامت) بالفصحى، والنوم صفة خاصة بالإنسان والحيوان، فكأن الأيام هي التي تُسَيَّر وتُقسم نفسها إلى أيام جميلة تارة وأيام سيئة تارة أخرى، فلفظة (عكست) عبّر بها عن تلك الأيام التي لا يحالفه فيها الحظ، وتعد أياماً نائمة أي لا تتحرك فيها الأشياء ويبقى الحدث راکداً. نلتمس في المثل السابق نوعاً من الإحباط وعدم المقاومة من جهة، ومن جهة أخرى نجده يدعو إلى التمهّل في الأمور ومسايرة المواقف، فهو صالح لكليهما.

- "دار السبوعا ما يقصدها الذيابة": استعارة تصريحية ذكر المشبه به "سبوعا" أي "الأسود" وحذف المشبه وهو الرجل القوي الشريف، وهناك استعارة أخرى في لفظ "ذيابة" أيضاً؛ صُرحَ بالمشبه به "الذيابة" وهم الخُبثاء من الناس، وفي كلتا الاستعارتين ترك قرينة دالة عليهما وهي "دار" أو البيت. رُغم أنّ المثل الذي بين أيدينا مجرد عبارة قصيرة إلا أنه احتوى على معانٍ كثيرة والفضل في ذلك أنه جاء في قالب بياني دقيق بلغة فاقت العادية.

- "النار تجيب الرماد": استعارة مكنية شبه فيها الحكيم الشعبي "النار" بالمرأة وترك لفظة تدل عليها "تجيب" ويقصد بها الإنجاب، حيث يذهب بنا المثل إلى أنه يوجد طائفة من الناس يتسمون بالذكاء والفتنة والنشاط البدني، إلا أنهم يخلفون أبناء لا يشبهونهم في العادة يكونون كُسالى ولا يَمْتَلِكون من الفتنة شيئاً.

إن وجود الاستعارة في المثل الشعبي يعد انزياحا عن اللغة العادية، التي تقوم على تقوية المعنى وتُخرج اللّغة من حلقة بساطتها إلى فضاء أكثر جمالية، في قوالب فنية مُحكمة الصياغة.

المطلب الثاني: التشبيه:

المثل عبارة عن تشبيه ينقل رسالة معبرة والتشبيه في "اللغة هو التمثيل وعند علماء البيان مشاركة أمر لأمر في معنى بأدوات معلومة"¹، أي أن التشبيه هو مشاركة المعنى بين شيئين أو أكثر مرتبطة بأدوات معروفة، وهو أيضا: "تشبيه شيء بشيء من جهة الصورة والشكل"²، قد يتضح من خلال التصور الذهني أو أن يكون واضحا من خلال الشكل الخارجي.

وإن الأمثال الشعبية تسعى لتقريب المعنى بعد إسقاطه على أحداث جديدة، فلم يوظف الحكيم التشبيه في المثل الشعبي عبثاً إنما حرص على إبراز الصفات ونقاط التماثل الموجودة في الأحداث، فتقوم الأمثال الشعبية الجزائرية على الخاصية البيانية لإثبات وإبراز صفة التشابه ويستعمل فيه حرف الكاف "ك" أو بصيغة "كي" بشكل أساسي في عملية التمثيل كأن نقول:

_"يلي مربّي ذرية الناس كلي داق القليلة في المهراس": نلاحظ وجود تشبيه بين ثنايا المثل الشعبي، فيه شُبه ذلك الإنسان الذي يُربي أولاد غيره، بالذّي يدُق على القمح الطازج في "المهراس" وهو وعاء يستعمله الشعب الجزائري من أجل الطبخ، وخلال هذه العملية لا يستطيع الإنسان التحكم بحبيبات القمح، تارة تنتشت هنا وهناك، وتارة ينقسم إلى نصفين أو أكثر ولكنه لا يصل إلى مرحلة الطحين المعروفة التي تحدث في مطاحن أصلية وخاصة.

والجملة الأولى (يلي يربي ذرية الناس) تمثل جملة المشبه، ويَعْقُبُها جملة المشبه به المتمثلة في (داق القمح في المهراس)، واستخدم هنا أداة الشبه (كلي)، نلاحظ من خلال هذا النموذج أن المثل استوفى تقريبا شروط التشبيه نتيجة لقيمته المعنوية، فيعد تحذيرا أو استشرافا لمستقبل الفرد المتبني لأطفال غيره، بأنه يجب عليه أن يأخذ بعين الاعتبار إمكانية عدم صلاح الأولاد المتبنين، وقد تكون نهايتهم مثل ما يحدث للقمح من شتات يُتعب صاحبه، وإذا تعمقنا أكثر نجد المثل يحمل قيمة اجتماعية متمثلة في ظاهرة التبني التي تُعد من أهم القضايا العالمية طرْحاً للنقاش. ونُذلل بمثال آخر الذي يقول:

سور الرمل لا تعلّيه * ولا تعمق في ساسو**

¹ - السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط وتدقيق يوسف الصميلي المحرر، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1999، ص 219.

² - عبد القاهر جرجاني، أسرار البلاغة، ط1، دار ابن الجوزي، جمهورية مصر العربية، القاهرة، 2010، ص 90.

ولد الناس لا تربيه *** يكبر ويرجع لناسو

يطرح المثل الأخير نفس القضية بصيغة مختلفة أكثر وضوحا من سابقه؛ حيث يُعطي استشرافا حولها مُبينا أنّ الإنسان مهما كان سيعود إلى أصله رغم الابتعاد عن بيئته وأهله الحقيقيين.

- "كي بوجليدة كي يروح للفيران يوري نيابو، وكي يجي للوعلة يوري جنحيه": يعد المثل الشعبي بوابة الولوج للقبض عن معانٍ متوارية، تتمحور حول دلالات النفاق والتواري خلف ستار الصداقة الرامية للخداع في حقيقة أمرها، والتشبيه المتواجد على مستوى جملة المثل، يوحي بخفاء الوجه الحقيقي تحت سطوة الأخوة الزائفة، أما أداة التشبيه (كي) فهي همزة وصل لربط معنيين مختلفين ظاهري وباطني؛ فحيوان الخفاش (بوجليدة) بوصفه مصاص دماء يحيل على دلالة الاستغلال مع إبداء معاني الحب الزائف.

في بداية المثل نلتمس وجود تشبيه حسي يدرك بالمعنى، إذ شُبه فيه الإنسان ذو الوجهين بالخفاش الذي يمتلك صفة الحيوانات النديية (لديه أسنان)، ويمتلك صفة الطيور المتمثلة في الأجنحة، ويكمن وجه الشبه بينهما في أنهما يتظاهران في كلتا الحالتين بنفس صفة الفئة التي يتواجدان معها. إن المغزى أو الحكمة جاءت في عبارة قصيرة تحمل معنى كبيرا، فقد أسهم المثل الشعبي في إبلاغ الهدف دون ملاحظة أية إطناب.

- "كب البرمة على فمها، تخرج الطفلة كأمها": ورد في المثل طرفا التشبيه والأداة ولم يذكر وجه الشبه، إنما جاء واضحا من خلال المعنى، والملاحظ من خلال هذا المثل الشعبي أن الحكيم الشعبي كان يعلم أن هذه الجملة لا تحتاج إلى تبيان وجه الشبه، لأنه من الطبيعي أن تأتي الفتاة بصفات أمها سواء الخلقية أم الخلقية.

- "إذا عاد الراجل ساقية، لمرأ تكون جابية": أيضا هنا التشبيه جاء مؤكدا بين الرجل و"ساقية" وبين المرأة و"جابية"، فلم يستخدم الحكيم الشعبي أداة الشبه أو وجه الشبه؛ لأن الأمر واضح هنا. وعمد إلى استعمال لفظة "عاد" بدل أداة التشبيه؛ بحيث نلاحظ أن المثل الشعبي صريح في معناه، حاملا بين طياته النصيحة لكل من الرجل والمرأة حتى يعيشا مرتاحي البال دون نزاع بينهما، فمن الضروري أن يتحمل كل طرف منهما الآخر، بالتكيف مع الظروف واحترام ذات بعضهما، وعادة يُقال هذا المثل في حالة الصُلح بين الزوجين المتخاصمين.

يؤكد وجود التشبيه في الأمثال الشعبية مدى فطنة قائله لتلك العلاقات الموجودة بين الأشياء والأحداث وعمق ارتباطها ببعضها البعض، إذ إن الأمثال في عمومها تحاكي الواقع بطريقة مرنة ذات أبعاد ومغزى معين، وكلما كان المثل في قالب محكم الصياغة كلما سهّل حفظه وانتشاره.

المبحث الثالث: جمالية الموسيقى في المثل الشعبي الجزائري:

تعمل الألفاظ في اللغة على نقل النص الأدبي إلى السامع أو المتلقي بمختلف أنواعه، وأما صياغتها في قالب فني جمالي فإنها تجعل من اللفظ مادة حية، تطرب السامع والمتلقي على حد سواء، فالإيقاع هو الكاشف الحقيقي لجمال اللغة إذ يؤثر في المتلقي من خلاله، والموسيقى من أهم الوسائط التي تمنح العمل الأدبي دقة في التصوير.

يستمد نص المثل الشعبي الجزائري موسيقاه من مادة صياغته ذاتها وهي اللغة؛ فالنغم وسيلة إضافية تملكها اللغة لاستخراج ما تعجز دلالات الألفاظ ذاتها عن استخراجها¹، وتعد اللغة أساسا جماليا ممثلة الحس الإيقاعي الموسيقي في التعبير، فكما تدخل النغمة الموسيقية نوعاً من الطرب لدى المستمع كذلك تشعر ألفاظه المتلقي بالراحة، مخلقة نغماً موسيقياً مثيرة مشاعره، ومنه ينعكس هذا الشعور على حالة المتلقي، فالعملية الإبداعية في تركيب جملة المثل الشعبي قوامها اللغة التي تجمع بين الحس الجمالي وبين المهارة في استثمار البديع وظاهرة التكرار وما إلى ذلك من التقنيات الصوتية الموسيقية.

ومما لا شك فيه أن الموسيقى الموجودة في نص المثل الشعبي تساعد الحكيم على إيصال عبرة معينة تتناسب الحالة الاجتماعية للفرد، أو تكون مناسبة للحوادث المتشابهة في أصلها. إضافة إلى أن الإيقاع الموسيقي أهم خاصية تميز بها المثل الشعبي فحفظت وجوده منذ نشأته. "والحقيقة أن السبب في بقاء الأمثال متداولة إلى يومنا هو إيقاعها الناتج من قصرها وإيجازها، فسَهْلَ حفظها وبقيت الأفواه تتناقل الأمثال، والتي هي نتاج طبقة شعبية لها نمطها المعيشي وطريقة تفكيرها"².

من خلال دراسة الأمثال الشعبية الجزائرية نجدها تُوظف النواحي الجمالية، مُركزة على الجانب الصوتي مع الاهتمام بقصر الجمل وفنيتها، والحقيقة أن المثل الشعبي يتميز بحركته الإيقاعية التي تصدر عن استخدام الوزن والإيقاع، وإن كان الوزن في الشعر يعمل على عرض الصور الفنية فيه، فنغم الوزن والإيقاع في المثل يعمل على صناعة الشكل اللغوي المقفل³.

يؤكد توظيف المحسنات البديعية في نص المثل الشعبي، وبطريقة عفوية على حقيقة الإنسان الذي يسعى إلى تحقيق كل ما هو جميل من قول أو عمل، ومن خلال دراسة المثل الشعبي الجزائري

¹ - محمد مندور، الأدب وفنونه، المجلد 5، دار النهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2006، ص 26-27.

² - سميرة فالح، البنية والإيقاع في الأمثال الشعبية، المعنى مجلة أدبية محكمة، المركز الجامعي خنشلة، الجزائر، ع 1، جوان، 2008، ص 130.

³ - نبيلة إبراهيم، مرجع السابق، ص 146.

استخرجنا بعضا من الأمثلة الشعبية التي تحتوي على المحسنات البديعة التي تزيدها ألفة في قلوب الناس. نذكر منها ما يلي:

المطلب الأول: السجع:

يعد السجع أهم وسيلة في المثل الشعبي، يتخذها الحكيم حتى يُعطي الجملة جرسا موسيقيا، ويُعرف السجع على أنه "تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد"¹، وهو فنٌ تتسم به اللغة العربية مانحا إياها جرسا موسيقيا وإيقاعيا، له تأثير في ذهن المُستمع أو المُتلقي ليقطع الطريق أمام الفتور والمَلَل من النصوص الأدبية، فترسخ المعاني بشكل فني، كما هو موجود في الأنواع الأدبية الشعبية: كالشعر الشعبي، الأغاز والأمثال الشعبية التي بقيت راسخة في الأذهان رغم تعاقب الأزمنة عليها، وسنوضح ذلك من خلال الأمثال التي سنُوردها كالتالي :

- "اخدم يا صغري لكبري واخدم يا كبري لقبري": يحتوي المثل على فواصل نثرية متمثلة في حرفي "الراء والياء" فجاءت الكلمات متشابهة في الصياغة وفي الإيقاع الموسيقي كلها بنغم واحد (صغري، كبري، قبري) وُضع المثل بهذه الصورة البيانية وكأنه يُراد من خلاله محاكاة النفس الميالة إلى الراحة، وعدم المبالاة بسير الحياة وما بعد الموت، من خلال طريقة الصياغة استطاع المثل أن يُحافظ على بنائه وتراكيبه حتى وإن طال الزمن عليه، لم تحدث تغيرات على مستوى القالب الذي وُضع فيه وإن وُجدت تكون في حرف أو اثنين.

- "خيار الماكلة ما حضر، وخيار اللباس ما ستر، وخيار الأسامي محمد-صلى الله عليه وسلم- خير البشر": سجع واضح فيه فواصل متناغمة ورد فيه مجموعة من الألفاظ التالية (حضر، ستر، بشر) يمثل كلها نغم موسيقي بصيغة واحدة اشتركت جميعها في نفس الحرف الأخير الذي يُعتبر منبعا لتلك الموسيقى الواضحة، إضافة إلى معناه المتمثل في النصيح والتوجيه والدعوة إلى عدم التكبر؛ فالأكل الموجود يكفي إن حضر، واللباس لا يهم نوعه وإنما يكمن في قيمته أنه يستر الإنسان فليس بالضرورة أن تكون كل الثياب فاخرة، أما من ناحية اختيار الاسم فاسم النبي -صلى الله عليه وسلم- كان ومازال أحسن الأسماء على الإطلاق.

- "بيني وبينك غير اذبحني، وقدام الناس لا تفضحني": هنا سجع متمثل في فاصلتين (اذبحني، تفضحني) تتناغمان مع بعضهما البعض منسجمة فيما بينهما، ومن ناحية المعنى جاء لتوضيح فكرة أن النصيحة يجب أن تكون سرا وليس أمام المَلأ حتى لا تحرج الشخص المنصوح.

¹ - الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع)، المجلد 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2008،

ومن عادة الأمثال الجزائرية أن تأتي في قالب فني جميل، فعندما نقول عبارة المثل الأخير فإنَّ نُطق الألفاظ فيه لا يشبه الكلام العادي، إنه من خلال طريقة إلقائه ينبع لدينا بعضاً من الرقة في نطقها. قد يعود هذا إلى مدى صدق العبارة ودقة معناها التعليمي فيها مزيج من النصيحة والطلب بطريقة مُهذبة.

- "لسانك حصانك، إذا صنتو صانك، وإذا خنتو خانك": إنَّ ألفاظ (حصانك، صانك، خانك) في المثل تنتهي بصوت واحد بإيقاع واحد أيضاً، إذ تشترك بآخر ثلاث حروف (ا ن ك). يسعى المثل عبر هاته الكلمات المتناغمة إلى توضيح المعنى دون ملل، وتأكيد مدى أهمية المدلول الذي جاء فيه، ينتشر بين الأجيال من أجل تحذير بعضهم من سلطة اللسان، لأنه أكبر عدو للإنسان، وهذا ما حذرنا منه الله سبحانه وتعالى.

- "تصنعت وجات، لقات العرس فات": نتج عن العبارة سجع برتة خفيفة وسريعة النطق المتمثل في لفظتي (جات، فات)، لقد جاء المثل بهذه الطريقة لضرورة فرضها الحدث، فيه حدثان مختلفان، يتكلم عن تلك المرأة التي أخذت وقتاً طويلاً وهي تتزين حتى انتهى الحفل أو العرس، بهذا يكون المثل عبارة عن موعظة خفيفة لكي يحسب المرء للزمن حساب، وأنَّ التأخير يؤدي إلى عدم بلوغ الهدف، كأنَّ نقول: "الوقت كالسيف ذو حدين إنَّ لم تقطعه قطعك"، كل من العبارتين تدعوان إلى تقدير الوقت والتنبيه إلى سرعة انقضائه.

المطلب الثاني: الجناس:

وهو من أبرز مظاهر الموسيقى الداخلية التي تُغذي النصوص الأدبية وتمنحها سمات شعرية، ويحدث الجناس حين "يتشابه اللفظان في النطق ويختلفان في المعنى"¹، ومنه يصبح له دور واضح من خلال التأثير على المتلقي، يكسب النص نغمة خاصة مخلفاً نوعاً من الانسجام بين الألفاظ والكلمات من خلال التشابه الحاصل في الصورة اللفظية، والجناس على حد سواء (ناقصاً كان أو تاماً) يصدر عنه طرب موسيقي فني له وقعه الخاص على الوجدان.

الأمثال عبارة عن كوكبة من العبارات المتجانسة المنسجمة بصفة عامة، وهذا ما نراه جلياً في الأمثال الشعبية الجزائرية، ولنا في هذا أمثلة كقول أحدهم:

- "الطمع يفسد الطبع": جناس ناقص بين كلمتي (الطمع، الطبع) فيه منحي جمالي يُعزز المثل الشعبي، وكأنَّ الحكيم بهذا المثل يحاول أن يجاري الأمثال الفصيحة لولا اختلاف النطق فيه، لأنه عندما نعود للمثل نجده عبارة عن ألفاظ فصيحة أدخلها النطق العامي إلى الدارجة ضمن قاموس الشعبية؛ بحيث يتم تسكين

¹ عبد الرحمن حسن الدمشقي، البلاغة العربية، المجلد 1، دار القلم، دار الشامية للطباعة والنشر، دمشق، 1992، ص 484.

أول حرف في لفظتي: (الطَمْع، الطَبْع) وتسكين آخرهما إضافة لفتح الحرف الذي يتوسط كل لفظة، فتصبح كما يلي: (الطَمْع، الطَبْع) وهذه خاصية من خصائص اللهجات العامية.

أما من ناحية المعنى فإنه يُحذَرُ الإنسان من صفة الطمع التي تُفسد أخلاق الشخص، فلا بد أن يكتفي المرء بما بين يديه ولا ينظر لغيره من الناس، إنَّ التَّعَوُّد على ما عند النَّاس يدعو إلى الكسل والاعتماد على الغير. وفي موضع آخر نجد مثلاً يحمل نفس المعنى السابق الذي يقول: "المكسي برزق الناس عريان"، يقودنا إلى مراجعة أنفسنا والاعتماد على النفس فما هو للنَّاس يبقى لهم، لو أنَّ كلاً مِنَّا اُفتتنع بما لديه وقام بواجبه في الحياة، ونفس المعنى نلتسمه في قولنا "القناعة كنز لا يفنى" فما بُنيَّ على قناعة كانت نتيجته الرُّضى.

- "الضرة مرة يالو كان جرة": فيه جناس غير تام متمثل في (الضرة، مرة، جرة)، ورغم أنَّ المثل قصير إلاَّ أنَّه ترتب عنه موسيقى خفيفة مناسبة لتلك الأحداث المفاجئة، فيه انتقى الحكيم الشعبي ألفاظاً متشابهة في البنية كي يكسو المثل الشعبي حلة فنية، تساعده على سرعة الانتشار والتداول بين الناس مع سهولة حفظه.

وفيد معناه أنَّ أمرَ الضرة سيء حتَّى وإنَّ كانت حسنة الخلق والطباع، وتبقى أمراً سيئاً بالنسبة للزوجة الأولى، وهو شعور تشترك فيه جميع النساء. ولفظ "جرة" ذكر نسبة لمضرب الحدث عندما اكتشفت المرأة التي قالت المثل عندما أتاها زوجها ومعه "جرة" جديدة بدل "الضرة" بعدما توعدا بأن يتزوج عليها، هنا أفصحت له أنَّ الضرة أمر لا يُطاق وإنَّ تمثلت في جماد "الجرة"، العبرة منه وجوب التريث في الحكم على الأشياء.

- "أفتح جيبك يستر عيبك": جناس ناقص بين لفظتي (جيبك، عيبك) زاد المعنى حساً جمالياً يدفع بالمتلقي لتدبر ألفاظه ومعانيه الداعية إلى الاعتماد على النفس وما يملك حتى لا يُفصح أمره بين النَّاس، نتعلم من خلاله فن التعامل بمصداقية وشفافية، والابتعاد عن الدَّين فيما يخصَّ المعاملات التجارية عند البيع والشراء أو الكراء، ومعنى "أفتح جيبك" أي أخرج ما عندك من مال وتعامل به، واترك الآخر يأخذ عنك نظرة جيدة حتى يثق فيك ويتعامل معك دون خوف منك، لأنه هناك من أفراد المجتمع من لا يمكن التعامل معهم من ناحية بُخلهم وكثرة ديونهم.

المطلب الثالث: الطباق:

وهو نوع من المحسنات البديعية كثيرة الاستعمال في النصوص الأدبية الشعبية، ويتمثل في "الجمع بين الشيء وضده في الكلام"¹، ويُعتبر حيلة بلاغية يوظفها المبدع ليضفي على النص عذوبة وجمالا، فيربط الكلام مع بعضه البعض من خلال التضاد لتُعرف الأشياء بالتضاد، هذه الظاهرة تمتاز بها الأمثال الشعبية الجزائرية وحتى العالمية، لأن المثل الشعبي يأخذ المحسنات البديعية مادة حية له، كأن نقول:

- "من كان حي شاهي تمرة، كي مات علقولو عرجون": وقع في المثل طباق بين لفظتي (حي، مات) يُطلق على الشخص الذي لا يلاحظ وجوده في حياته ثم يُشاع أمره بين الناس بعد موته واختفاءه، إنَّ لفظتي (حي، مات) لم توظفا عبثاً إنما لإبراز دلالة وجدانية، وجب التنبيه لها ألا وهي المُبالغة في ذكر محاسن الإنسان أو الشيء بعد فوات الأوان، ولم يعد لها نفع لذلك الممدوح.

كثيرا ما يتداول الناس هذا المثل في الوسط السياسي، الذي تتكاثر فيه الأحداث خاصة بعد تعدد الأحزاب واختلاف وجهات النظر وتضارب الأطراف.

- "يلي حبك ما بنالك قصر، ويلي كرهك ما حفرك قبر": طباق إيجابي بين لفظتي (حبك، كرهك) وقعتا في جملتين منفصلتين مكتملتا المعنى، إلا أنَّه عند سماع الجملة الأولى (يلي حبك ما بنالك قصر) يجعلنا ننتظر نقيض (الحب) حتى يتوازن الموقف من ناحية المعنى، يُقال هذا المثل عند النصيح في العادة، يذهب في معناه أن البشر لا قدرة لهم على فعل شيء إن لم يكن مُقدرا لهم، وهذا ما دعا إليه ديننا الحنيف، فليس منطقيا أن نعلق آمالنا بأشخاص لا نفع فيهم.

- "دير الخير وأنساه، ودير الشر وتفكرو": طباق إيجابي متمثل في لفظتي (الخير، الشر) المتضادتين بينهما فرق لا يمكن أن يجتمعا في قلب واحد، فإن حضر الخير غاب الشر لضرورة أخلاقية متجذرة في الإنسان، فالذي يُحب الخير لا يمكنه التفكير في الشر وإن بلغ من أمره ما يضره، وفي المثل طباق ثان بين لفظتي (أنساه، تفكرو) يتضمن الدعوة إلى الخير، وعملية النسيان يُقصد بها عدم تذكير الإنسان الذي فعلت معه الخير بفضلك عليه انتظار الجزاء من الله عز وجل، أما إذا فعلت شرا وجب عليك أن تتذكره دائما كي لا تُكرره، أو انتظر وقوع شر ما قمت به على رأسك، لأن فعل الشر لا تُحمد عاقبته.

السياق الذي جاء به المثل جعل منه حاضرا في مجالس التعليم والذكر، ولو جاء المثل بصيغة عادية لما ظل عالقا في الأذهان، ويفضل انزياحه عن اللغة المُتحدث بها في سائر الأوقات كان له حضور

¹ السيد أحمد الهاشمي، مرجع سابق، ص303.

جمالية الأمثال الشعبية الجزائرية-دراسة فنية

في مواقف عدة؛ حيث يتخذ البعض سبيلا للإقناع، فالخير لا يتساوى مع الشر مهما طال الزمن، وأن جزاءهما من نفس جنس العمل، ويُقال أيضا من أجل المقارنة بين حادثتين أو شخصين.

- "الجديد حبو والقديم لا تفرط فيه": في بداية المثل جاءت لفظة (الجديد) ثم يعقبها تضاد في لفظة (القديم)، يتضح معناه منذ البداية محاكيا الواقع الذي يحتوي على ما هو قديم وجديد في حياة البشر، إنَّ التنوع ضرورة لاستمرار الحياة ودلالة المثل توحى بالزامية التعايش مع كليهما دون التفريط في أحدهما، فإن كان الجديد هو الذي نطمحُ إليه فإن القديم أساس ذلك الجديد.

إنَّ احتواء المثل الشعبي على المحسنات البديعية يُؤدّي لدى المستمع التوتر والقلق، والسعي لفهم المعنى وتفكيكه بهدف الوصول إلى تلك الرسالة المشفرة وإسقاطها على الحدث الراهن، وصياغته بهذه الطريقة أدت به إلى التداول والانتشار في الوسط الاجتماعي.

المطلب الرابع: التكرار:

يمثل التكرار المادة الأساسية في البناء الموسيقي داخل نص المثل الشعبي، إنه ظاهرة لغوية عريقة متواجدة في اللغة العربية منذ العصر الجاهلي، نلاحظها من خلال ما وصل إلينا من شعره ونثره، ويعرف على أنه "تَنَاقُوب الألفاظ وإعادتها في سياق التعبير، بحيث تشكل نغما موسيقيا يتقصده الناظم في شعره ونثره"¹، يلعب التكرار دورا في البنية العميقة التي تتحكم في حركة المعنى مثلما نجده أيضا في السجع؛ إذ يتكرر الحرف الأخير في جملة المثل الشعبي، يمنح النص طابعا موسيقيا مبتعدا عن الملل لدى المتلقي. لقد اتجه الحكيم الشعبي إلى توظيف الموسيقى الداخلية في المثل الشعبي وإن كان لا يعلم بهذا، مما زاده حُسنا وطربا ونمّثل على ذلك بما جاء في نصوص المثل الشعبي الجزائري، مثل:

- "إذا حلفوا فيك الرجال بات راقد، وإذا حلفوا فيك النساء بات قاعد": تمثل التكرار عل مستوى شبه الجملة "حلفوا فيك" التي يقابلها في الفصحى "إذا هَدَّدَكَ أو تَوَعَّدَكَ"، هنا تكرار واضح مقصود لتبيين الفرق بين المرأة والرجل، فالقسم واحد ولكن تنفيذه يختلف بينهما، فمقدار الحقد والمكر الموجودان عند المرأة لا يشبهان ذاك الذي عند الرجل، وكأن المثل يوضح أن الرجل أكثر رزانة من المرأة، وبذلك يعد متن المثل مقارنة بين جنسين مختلفين في طريقة التعايش مع الحياة الاجتماعية، لكل وجهة النظر الخاصة به.

- "إذا فاتوك في العلم فوتهم بالظرافة، وإذا فاتوك بالزِين فوتهم بالحفافة": يتكرر في العبارة شبه الجملة "إذا فاتوك"، التي توحى في الصياغة السابقة ببداية الوعظ والنصح ثم يستمر إلى المقارنة بين الأفعال والصفات

¹ - ماهر مهدي هلال، جرس الألفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب، المجلد 1، دار الرشيد للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد، 1980، ص 239.

المختلفة (بين العلم والظرافة). ولفظة "الظرافة" يُقصد بها الترتيب في الكلام والأفعال، إضافة للمقارنة بين لفظة (الزين) أي الجمال الطبيعي، ولفظة (الحفاة) التي يقصد بها ذلك التعديل الذي يحدث بعد الاعتناء بالمظهر الخارجي وحتى تسريحة الشعر وما إلى ذلك، كان التكرار واقع في بدايتي الجملتين بأسلوب ذكي، اتبعه الحكيم الشعبي خاصة عندما حدث ذلك التناغم بين العبارتين فعند سماع الجملة الأولى ينلّهم المتلقي حتى يعرف تكملتها.

- "شوية من الحنة، وشوية من رطابة اليديين": جاء التكرار على مستوى اللفظة (شوية) كررت مرتين في المثل؛ حيث يسهل ملاحظته من البداية، وتقابل لفظة (شوية) في الفصحى كلمة (قليلا)، والتركيز على كلمة معينة وتكرارها في المثل الشعبي أمر مقصود، يهدف لتثبيت صفة معينة أو الدعوة إلى أمر معين، قد يكون الغرض منه هنا الموازنة بين شيئين أو المزوجة بينهما فإذا حضرا تحققت الغاية المرجوة.

نستطيع القول أن المثل الشعبي - سابق الذكر - يطرح قاعدة لا بد منها في حياة المرء، وهي ضرورة الموافقة بين الأشياء حتى تكون النتيجة واضحة ومرضية في بعض المواقف والأفعال التي يتعرض لها المرء خلال تعاملاته اليومية مع غيره أو في نفسه. أما من ناحية معنى المثل نجده يشترك مع مثل شعبي آخر: "إيد وحدة ما تصفق" أي الدعوة لفكرة التعاون والموازاة بين الأشياء منذ بداية الحدث.

- ونذكر أيضا المثل الذي يقال في وصف الوسط النسائي الذي يقول:

سوق النسا مطيار *** ويالي داخلو رد بالك

يورولك من الريح قنطار *** ويدولك من راس مالك

أتى المثل في قالب شعري فتي يتوفر على القافية في آخر ثلاث حروف في نهاية كل بيت شعري (الألف واللام والكاف)، ثم يتمثل التكرار في لفظة (سوق) ينوه فيه الحكيم الشعبي بأهمية القضية الاجتماعية، مسلطاً الضوء على جوانب خفية في عالم النساء، وورود لفظة (سوق) لا يقصد به المكان المفتوح الذي تمارس فيه أنواع التجارة والحرف، إنما هو تشبيه ضمنى يعالج من خلاله المثل الشعبي تفكير النساء، وفتح باب النقاش معهم يؤدي إلى الخسارة بالنسبة له.

تطرح عبارة المثل فكرا ينقد المرأة وكيفية تفكيرها، ثم إننا نلتمس تكرارا على مستوى الأصوات في لفظتي (يورولك ويدولك) قُدمتا بنفس الصياغة والوزن انطلاقا من نغمة واحدة، وفي لفظتي (مطيّار، قنطار)، كان لهما نفس القالب الموسيقي، وكل كلمة منهما تدل على معنى مختلف عن الآخر.

جمالية الأمثال الشعبية الجزائرية-دراسة فنية

لقد انتبه الحكيم الشعبي إلى أهمية الصياغة الفنية للمثل الشعبي؛ فبدلاً من أن يقول حديثاً عادياً عن المرأة، لجأ إلى التحايل بالألفاظ، و"تبدو عبقرية الإبداع الشعبي في أسلوب هذه الأمثال، في الملائمة الرائعة بين الألفاظ ورصها داخل كل وحدة، في نظام كلامي صوتي بديع دون أن يكون هناك حشو ولغو، ودون أن يكون هناك ركافة أو إسفاف"¹، فالمبدع الشعبي عند وضعه للمثل الشعبي لم يغفل عن توظيف هذا الأسلوب المؤثر والمميز ليس تكلفاً بل تحقيقاً لغاية صوتية فنية، ذلك أن الإنسان ينفر بطبعه من الأسلوب المسترسل ويتجه نحو الأشياء الأكثر إيقاعاً وانسجاماً.

الخاتمة:

الأمثال الشعبية الجزائرية نتاج له وزنه الخاص لما لها من فاعلية وتأثير على مستوى الفرد والجماعة، هي ذخيرة وحوصلة لتجارب إنسانية سابقة تحمل في ثناياها دلالات ومعانٍ متعددة لا تنحصر في مجال معين، إذ تُعبر عن ثقافة مجتمع ما بشكل موجز ومختصر، بلغة منزاحة عن اللغة المألوفة، يقوم على أساليب فنية وجمالية، ويُستعمل فيها البيان والبلاغة، مما يؤدي بها إلى المرونة التي تجعلها توافق أحداثاً جديدة بمتغيرات مختلفة، ولقد توصلت في بحثي هذا إلى نتائج أهمها:

- تتسم الأمثال الشعبية بالإيجاز وكثافة المعنى وتُصاغ في قوالب فنية محكمة.
- تُعد الأمثال الشعبية مادة حية ذات حصانة من الاندثار، فلا يخلو مجتمع منها لأنها تُعبر عن حياة مليئة بالتجارب الإنسانية في جمل قصيرة، ذات نغمة موسيقية سهلة التداول والانتشار.
- يبرز التشكيل الإيقاعي كقاعدة للأمثال الشعبية أو حتى الفصيحة بُغية للديمومة والاستمرار؛ بحيث يمنحها جانباً جمالياً.
- كل مثل شعبي يُمثل درساً تعليمياً، يُعالج بعضاً من القضايا الاجتماعية، ويطرح الكثير من القيم الأخلاقية، كما أنه يبقى شاهداً حياً على أحداث ماضية لها وقع على تفكير الناس.
- تبتعد الأمثال الشعبية الجزائرية في تركيبها ومفرداتها عن قواعد النحو في أغلب حالاتها، إلا أنها تمتاز بصفة الإيقاع الصوتي المتمثل في التكرار والسجع وباقي المحسنات البديعية الأخرى، إضافة إلى توظيف البلاغة والتشبيه والإيجاز فتُضفي عليه طابعتاً جمالياً.

¹عبد الملك مرتاض، مرجع سابق، ص136.

- لا يكتفي المثل الشعبي بمهمة التواصل ونقل التجارب والخبرات بل يتعداها إلى نقد المجتمع والسلوكيات، ومحاولة إصلاح سلوكيات وأخلاق أفراد المجتمع، عن طريق إعطاء العبر والمواظ عن طريق الأمثال الشعبية كونها الأقرب من كل فئات المجتمع.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: الكتب

- أحمد أمين، قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012.
- الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم المعاني (المعاني والبيان والبديع)، المجلد 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2002.
- السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط وتدقيق وتوثيق يوسف الصميلي المحرر، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 1992.
- عبد الرحمن حسن الدمشقي، البلاغة العربية، المجلد 1، دار القلم، الدار الشامية للطباعة والنشر، دمشق، 1992.
- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، دار ابن الجوزي، القاهرة، جمهورية مصر العربية، 2010.
- عبد الملك مرتاض، الأمثال الشعبية الجزائرية "دراسة في الأمثال الزراعية والاقتصادية بالغرب الجزائري"، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007.
- ماهر مهدي هلال، جرس الألفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب، المجلد 1، دار الرشيد للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد، 1980.
- محمد مندور، الأدب وفنونه، المجلد 5، دار النهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2006.
- نبيلة إبراهيم أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار النهضة، القاهرة.
- هلال الجهاد، جماليات الشعر العربي- دراسة في فلسفة الجمال في الوعي الشعري الجاهلي، المجلد 1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2007.

ثانياً المقالات:

- سمية فالق، البنية والإيقاع في الأمثال الشعبية، المعنى مجلة أدبية محكمة، المركز الجامعي خنشلة، الجزائر، ع1، جوان 2008.